موسم الهجرة إلى ديالى

بغداديون على خلفية الحرب

صارت ديالى منذ حرب العام 1991 حاضنة مفتوحة للبغداديين، الذين كانوا يفكرون مع كل تلويحة حرب في الأفق، باللجوء إلى تلك المساحات الكريمة الواقعة عند الخاصرة الشمالية الشرقية للعاصمة والمسماة ديالى.

بعقوبة: المدى

أولئك الذين لهم أقارب أو معارف في بعقوبة أو غيرها من مناطق المحافظة لم يكونوا ليواجهوا أية مشكلة، أما من لم يكن لهم أقارب أو معارف هناك فكان الأمر معهم مختلفاً.. البيوتون منهم استأجر وابيوتاً قبل شهرين أو أكثر من وقوع الحرب ودفعوا أجر ستة أشهر أو سنة كاملة مقدماً. أما الفقراء فجاءوا واعتمادهم على الله، ليسكنوا أي مكان يمكن أن يسترهم ويقيهم الأذى.

صواريخ أولى

في صبيحة يوم 20 آذار 2003 فوجئ البعقوبيون، وهم يستمعون إلى الراديو، بالحرب قد بدأت، إذ انهالت الصواريخ على مبنى في غرب بغداد اعتقد الأميركان أن صداماً يجتمع فيه مع أعوانه.. وتساءل بعضهم فيما إذا كانت هذه هي بداية الحرب حقاً أم مجرد ضربة استباقية واجهاضية أخطأت هدفها؟.. ولم تسقط الصواريخ الأولى على مدينة بعقوبة إلا في مساء اليوم التالي مستهدفة مراكز الاتصالات.

من تحت أنقاض مركز الاتصالات الرئيس في بعقوبة أخرجوا، بعد ساعات، مهندساً كان مايزال على قيد الحياة غير أنه توفي بعد أيام قليلة نتيجة الصدمة التي تعرض لها. أما مركز الميكروويف فكان نصيبه أكثر من ضربة واحدة.. إحداها حصلت وقت الضحى وراحت ضحيتها اثنتان من النسوة اللواتي كن يجلسن خلف حائط المركز يبعن الخضر للمارة.

في الأيام الأولى للحرب لم تصل بعقوبة سوى عائلات بغدادية محدودة.. كانت الفكرة الرائجة أن لبغداد، في هذه الفترة، سيواجهون قدرهم في بيوتهم، وأنهم لن يتركوها مثلما فعلوا، خلال الحرب السابقة، قبل اثنتي عشرة سنة. إلا أنهم مع وصول طلائع القوات الأميركية إلى مشارف بغداد الجنوبية بدأوا يفكرون جدياً بالمكان الذي سوف يهربون إليه. وكانت ديالى، في الغالب، هي المقصد.

تجار ديالى فكروا بالأمر منذ وقت مبكر، وخزنوا كميات كبيرة من السلع المختلفة لتلبية الاحتياجات المتوقعة في زمن الحرب، فالمحافظة التي لا يتجاوز عدد سكانها المليون نسمة إلا بقليل سيدخلها مع تصاعد حدة المعارك مليونا شخص آخر في أدنى تقدير. ومع مرور الأيام واقتراب قوات الغازية من بغداد وكثافة الغارات الجوية وسقوط الصواريخ، بات لزاماً على البغادادة أن يفكروا بأبيوتهم وحياة عوائلهم ويتركوا أبيوتهم ريثما يقضي الله أمراً كان مفعولا.

البغداديون قادمون

كان مشهد أيتام النامين حتى عشر على كرسي فارغ في الصالة.. جلس ثمة وأغمض عينيه.

ويضيف شهاب أنه فكر أن يذهب في اليوم التالي ليزام في بيت عمه.. هناك أحاط به لغط الأطفال والكبار.. كانوا ضيوفاً من بغداد. قال شهاب في سره، لا مكان هنا كذلك.. شرب الشاي وستاذن وخرج عائداً إلى بيته، وفي مخيلته يرجو الله أن يجد كرسي الأمس فارغاً، أيضاً.

ينقطع.. وكان محظوظاً من له معارف أو أقارب في المحافظة، وكذلك من وجد غرفة أو بيتاً أو هيكل بيت لم يكتمل بناؤه للإيجار، بيد أن الآخرين عانوا الأمرين.. ارتفعت الإيجارات أضعافاً مضاعفة، ولم تبق ثمة أمكنة خالية، فمعظم البيوت استغلت لشاعاً وعوائل، لا في مركز المحافظة وحده، وإنما في الأقضية والنواحي الأخرى أيضاً، ومتلأت البنايات الفارغة بالناس. ولم يئن القصف لتحتمل المؤسسات داخل المدينة من التجول في الأسواق.

تصاعدت أسعار السلع، ولا سيما الغذائية منها. وراح البغداديون يبدلون النقود من فئة الـ 250 ديناراً بفئة العشرة آلاف دينار لسهولة حملها، بسعر أعلى، قبل أن تهبط قيمة الأخيرة، بعد الحرب، إلى النصف تقريباً. حين وصلت عائلة (كنعان. ر) إلى بيت ابن عمه في منطقة حي المعلمين ببعقوبة مع ساعات الفجر الأولى، استقبلتها الطلقة الصاحكة للعائلة الضيفة.. كانت مسافة التوتر مربكة بين صوت الانفجار القريب الذي أرعب الجميع، ولا سيما الأطفال، وحطم زجاجات النوافذ بعد منتصف الليل وجعلهم يقررون الخروج حالاً إلى بعقوبة وبين هذه التهيئات. ففي الحال عادت السكينة إلى النفوس.. تخرط الأطفال في اللعب مع أقرانهم وجلس الكبار يتثرثرون في كل شأن وهم يتناولون فطورهم.. قال ابن العم عبد الله:

- منذ العام 1991 لم تزورونا!

كانت تلك إشارة مبطنة إلى أن العائلة الهاربة من جحيم القصف في بغداد لم تكن لتفكر بالمجيء لولا الحرب.. وأن آخر زيارة لها كانت في العام 1991 إبان الحرب أيضاً.. قال كنعان:

- إن شاء الله، بعد الحرب، سأتي في زيارة خاصة.

- قلت هذا قبل ثلاثة عشر عاماً!

ضحك كنعان وقال:

- لا.. هذه المرة للسألة مختلفة.

كرسي للنوم

يقول شهاب أنه ذات يوم من أيام الحرب وصل بيته متأخراً.. ربما كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل.. سألته زوجته، أين يمكنك أن تنام؟. إنهم جماعة بغداد.. لقد جاءوا وأوى غرفتي ست من النساء وحوقة من الأطفال.. كانوا الأكثر من أربعين فرداً، توزعوا في الصالة وغرفتي النوم والممرات.. وفي المطبخ والعلية.

قال: وماذا تقترحين؟

- لا أدري!

- قتدري ما هي مصيبتنا؟ نكذب لحقائق التي نراها ونصدق أوهامنا!

في صحراء منطقة كنعان، وباتجاه البعقوبيين.. حفروا خنادق ضقة وقبعوا هناك بانتظار الأميركان، غير أن الأميركان جاءوا بالطائرات، وقصفوا المكان بشدة، وقتلوا أكثر أمن هؤلاء.. كان جلهم ذاهباً إلى هناك بلا قناعة.. هكذا قالوا بعد نهاية الحرب، لكن واحداً منهم، وهو ضابط برتبة عضو قيادة فرقة، كان مايزال يعمه في غيه.. الح على ولديه ليأخذهما معه إلى ساحة المعركة.

قال الكبير وكان مريضاً جداً: والله يا بابا، أنا مريض، ولا أستطيع.

رد عليه أبوه بغظاظة: أسكت! اتريد أن تتفرج على الناس وهم يتسلمون هدايا (السيد الرئيس) نصف مليون دينار لكل واحد منهم.. إنها مسألة أيام وسينتهي كل شيء!!

حقاً، كانت مسألة وقتي كل شيء، غير أن عضو قيادة الفرقة ذاك عاد بجثة ابنه الريض إلى بيته، وله يتسن له فرصة أن يقبض هدية (الفائد) قط!

التمثال يسقط

في شقته الصغيرة مستضاف (صباح. ا) عائلتين صديقتين.. كان الضجيج عالياً طوال الوقت.. كان صباح يخرج مع ربي العائلتين إلى السوق، ينتبذون ركنا في مقهى، أو في محل التصوير الذي يعمل فيه (ومن يصور في مثل هذه الأيام؟!).. كان الثلاثة يجلسون في ساعات الفراغ الديدة، يدر شون ويتناقشون في مسألة الحرب.

- صدام سيسقط..

- أخشى أن يبقوا أنا لا أثق بالأميركان.

- أعتقد أنها جزء من اللعبة القديمة ذاتها.

- لم لا؟! أفعلوها قبل هذا!!

- أنا لا أعتقد..

هذه للرة الظر وف مختلفة.

- من يدري؟

قبل الحرب بأيام قليلة كانوا مجتمعين أمام شاشة التلفاز، والعوائل الثلاث

قناة العالم الإيرانية من أخبار.

عرضت القناة لقطة تصور أسقاط تمثال صدام في ساحة بمدينة البصرة.. فجأة انفجر الجميع بالتصفيق والتهليل، وفي لحظة تنبه أحدهم لخطورة ما حصل.

(- يهود يين لمدلتسون؟).

وأسرع إلى النافذة ليغلقها.. كانت النافذة تطل على ساحة يقف عند طرفها بعض البعثيين في نقطة حراسة.

- وما أدراهم ما الأمر؟

- ربما عرفوا أن التلفزيون عرض هذه اللقطة.

- أنت تهجس من كل شيء.

(- يهود يين، استراحوا علينا حلكه يوم).

نهاية (الهميلة)

مع اقتراب نهاية الحريق لاحظ سكان المدينة أن الخنادق الثقبة التي كانت تمثل بالسلحين في الاسبوعين الأولين من الحرب، راحت تخلو منهم شيئاً فشيئاً.. وبات لا يسو الزيتوني يخلعون بزاتهم هذه ويلبسون البدلات المدنية، حتى لم تكن لترى في اليوم الأخير من الحرب من يرتدي تلك البزة إلا في القليل النادر.

كان اثنان من هؤلاء، في صبحي يوم 2003/4/9 يجلسان في حافلة تقلهما من ضاحية في المدينة إلى مركزها.

سأل أحدهما صاحبه هامساً:

ماذا تعتقد؟

قال الآخر:

- لقد فتهى كل شيء.

قال الأول: معقولة؟! بهذه السهولة؟!!

قال الثاني: أية سهولة يا أخي؟. جيوش أقوى دولتين في العالم، وآلاف القتلى والجرحى وهذا الخراب، وتقول بهذه السهولة!

- لا أكاد أصدق.

- صدق... وماذا كان يظن..

لقد قضاها بالعنتريات الفارغة والهميلة.

[الهميلة هي أن يدعي شخص ما تمتعه بقوة لا يمتلكها.]

مرت السيارة إلى جانب تمثال صدام.. أضاف الرجل متهكماً:

- انظر إليه.. في الأسبوع القادم لن تراه هاهنا.

بعد قل من أسبوع جاء بعض شباب بعقوبة وأسقطوا التمثال ومحبوه بوساطة حبرة زراعية إلى وسط المدينة، وخلال ذلك كان البغداديون العائدون إلى بيوتهم، وقد انتهت الحرب، من فوق سيارات لحمل، أو نوافذ سيارات الصالون والحافلات، يصفقون ويهتفون لمرأى التمثال وهو يتهاوى.. ويسحب في الشوارع..

ويستقر على جانب نهر خريسان. فيحتشد الأطفال حوله.. يصعدون فوقه، ويرقصون.

(ملاحظة أخيرة:

أكدت بعض التقديرات أن عدد البغداديين، الذين دخلوا محافظة ديالى في موسم الحرب، تجاوز الأربعة ملايين شخص. وخلال ذلك ترسخت صداقات وحصلت قصص حب ومراسيم خطبة وزيجات).

مشهد عرسي

ممثل مسرحي معروف دخل ضاحية في القدادية مع عائلته وهدفه البحث عن سكن.. كان لوقت ظهيرة يوم جمعة.. قال لهم، انتظروا هنا. وتركهم في السيارة ودخل الجامع ليصلي..

بعد انتهاء الصلاة طلب من المصلين أن يصغوا إليه وعتمداً على قدرته في الأداء المسرحي خطب فيهم عن ظرفه ووضعه وعائلته، وأنه بحاجة إلى بيت أو غرفة.

تأثر الجميع.. صمتوا قليلاً، حتى قال أحدهم:

- عندي لك غرفة.

مشهد عرسي آخر:

مع أول عتمة الليل صعد علي وابراهيم الدرج إلى مقهى يقع فوق سطح عدد من المحال التجارية. هناك، لم يجدا الارائك والطاولات، ولم يلتقيا صاحب المقهى والندل، بل باغتهم منظر عوائل تتحلق حول صواني الطعام.. بعد ثوان ذاهلة رجعا القهقرى، وكان صوت رجل شيخ يلاحقهم.

- (تفضلوا عيني، تعشوا..)

كانت تلك عوائل بغدادية.

الأميركان في القصر الجمهوري

اشتدت للعارك في الأسبوع الأخير من الحرب.. الأميركان الآن قرب مطار بغداد الدولي.. بعد ذلك قالوا إنهم احتلوا المطار. وخرج علينا لصحاف وقال: إن قواتنا ذبحت الأميركان العلوج في المطار. وقال الأميركان أن أول طائرة لهم من نوع C-130 هبطت في المطار.. وقال البعثيون إن صدام أيقاتل في المطار.

في الوقت نفسه عرضت قناة العالم الإيرانية (وكانت القناة الوحيدة تقريباً التي من خلالها كان أهل ديالى يتابعون ما يجري على أرض الواقع) صورة القوات الأميركية في القصر الجمهوري.

سأل عضو في قيادة فرع ديالى لحزب البعث أحد الأعضاء من الدرجات الحزبية الصغيرة: ما الأخبار؟.

قال هذا: الأميركان تناولوا فطورهم اليوم في قصر الجمهوري.

رد عضو لفرع غاضباً: أنت تقول مثل هذا الكلام.. كيف لك أن تشيع شيئاً كهذا؟!

- ولله أنا رأيتهم في التلفزيون يتناولون...

- أقول لك لا تردد مثل هذا الكلام.

سكت العضو ذو الدرجة الحزبية الصغيرة على مضض.. بعد ذلك همس في أذن عضو آخر في درجته الحزبية نفسها، بثق فيه:

- أتدري ما هي مصيبتنا؟ نكذب الحقائق التي نراها ونصدق أوهامنا!

في صحراء منطقة كنعان، وباتجاه البعقوبين.. حفروا خنادق ضقة وقبعوا هناك بانتظار الأميركان، غير أن الأميركان جاءوا بالطائرات، وقصفوا المكان بشدة، وقتلوا أكثر أمن هؤلاء.. كان جلهم ذاهباً إلى هناك بلا قناعة.. هكذا قالوا بعد نهاية الحرب، لكن واحداً منهم، وهو ضابط برتبة عضو قيادة فرقة، كان مايزال يعمه في غيه.. الح على

في ظلال الحرب

منظومة القيم العراقية اثبتت تماسكها

الأنبار / سمير كامل شهاب

مودة ومحبة وألفة بين أبناء الشعب الواحد. افرزتها تلك الحرب التي دارت رحاها على أرض الرافدين.

كانت أوزار الحرب تلقي بظلالها على الشارع العراقي برغم كل اللحن التي عصفت به، كثير من العوائل نزحت إلى الأقضية والنواحي، تتفادى الاصطدام مع المجهول، وكل منهم ينشد قريباً في قضاء، وصديقاً قديماً في ناحية.

نزوح جماعي

السيد (محمد خليفة) مدير مدرسة قال: حين قرعت طبول الحرب قررت الذهاب وعائلتي للكوتة من سبعة افراد الى دار ابنة شقيقتي في هيت. ولم أنس ذلك الرجل العجوز (صبري) الذي كان يشارك كرتي لقمة العيش ويسهر معي الليالي ويمازحني وأسأل الله أن أرد له هذا الجميل وأزوره ونتذكر معاً الأيام العصيبة والجميلة في آن واحد.

العلم (نوري يوسف) - قال - لن أنس صهري (وسام كامل) فقد استقبلني وعائلتي وقريباً لي بالرغم من أن ضيوفاً قادمين من بغداد كانوا يملأون داره العامرة، ولولا ذلك الرجل الشهم لكنت مشرداً في تلك الأيام.

ويقول السيد (كاتب ندا) من أهالي بغداد. اجهشت بالبكاء للرأة أفارق بغداد الحبيبة ولم يبق لي من خيار سوى الرحيل منها فالتجهت إلى المنطقة الغربية واستقبلني بعض العارف والأصدقاء وما أن وصلت دار الوطن (مزاحم كمال) مع عائلتي وحاجاتي الضرورية لأداءة عيشي / أقسم بأغلظ الأيمان أن لا أبارح منزله وقضيت معه عشرين يوماً أحاطني برعاية قل نظيرها.

وتحدث (كريم شهاب) عن محنته آنذاك. وقال: ذهبت إلى منطقة هيت محرجاً آنذاك واستقبلني رجل لا أربطني به سوى الوطنة العراقية، جعلني أحس بالأمن والأمان وأن الدنيا بخير ناسمه بالضيوف إلا أنه كان مرحاً وفرحاً مع الجميع. ويختم حديثه / كنا من أصول وطوائف مختلفة لكننا كونا عائلة واحدة.

فندق بلا أجور

السيد (نواف الجميلي) - صاحب فندق - كان دوره بارزاً ومشرفاً أثناء الحرب قال: إلتقت مدير الفندق (جمال عبد العزيز) أن يقوم بإخلاء اجنحة الفندق وإيواء العوائل النازحة من المدن الأخرى بدون مقابل. ويضيف: قمت بذلك لعظيم أن لا أجني درهماً واحداً أمن أبوائي للنازحين.

ويشاطره الحديث (حميد البجاري) ويقول: لقد قمت بإخلاء فندقي وجعلته شاغراً لاستقبال من يريد أن يكون بين أقسامه، وخاصة أهالي بغداد والمحافظات دون السؤال عن العشيرة والطائفة والمعتقد، يكفي

ويقول السيد (صبري وريب): كان لي دار ان مؤجران قمت بإخلاء من فيهما وتبرعت بهما إلى النازحين من المدن الأخرى بلا مقابل.

أما السيد (جمال شهاب) فقال: كان عندي محلات مهجورة في المدينة الصناعية قمت بترميمها وادامتها لكي يسكن فيها من يشاء أثناء الحرب بلا ثمن.

الوطن (أحمد حبيب) قال: كان عملي مع مجموعة من الطبيين للوقوف على الشوارع العامة والقيام بدور الدليل إلى الفنادق والدور الشاغرة.

هذه نماذج من مواقف مواطنين عراقيين واجهوا الحرباً غريبة بين طرفين لهما حساباتهما الصلحية الخاصة، فناوا عن كليهما وترا صوا مع بعضهم البعض، وأثبتوا أنهم قطعة واحدة في جسد واحد هو العراق.